علماء الزيتونة في تونس في القرن السادس عشر الميلادي ومواقفهم المشرِّفة

د. خليل إبراهيم قُوتْلاَيْ
جامعة السلطان محمد الفاتح الوقفية - تركيا

ملخص

من سُنن الله تعالى في الكون وجودُ التغيرِ الاجتماعي والتطوّر والتقدّم، ولا يتِمُّ ذلك إلّا بتغير الأنفسِ، ولا يتحقَّق ذلك إلّا برغبة أكيدةٍ في الوصول إلى التقدُّم والتطوّر. قال ابن خلدون رحمه الله: «إنّ الحضارة تنشأ حينما يَستلهم الناسُ عزمًا واضحًا على بلوغ التقدّم، ويكرّسون أنفسهم تبعًا لذلك؛ لخدمة الحياةِ والعلم». اهـ. ولكنْ يُشترط في ذلك الحفاظُ على الهوية الأصليةِ من التغيُّر، فطَوالَ التاريخِ كان للعلماء عزمٌ واضحٌ على بلوغ التقدُّم ودورٌ بارز في أهمِّ المتغيّرات الحضاريةِ والاجتماعية التي مرَّتْ بها أمّتُنا، وقد كان من بين هؤلاء "علماءُ الزيتونة في تونسَ" الذين سجَّل لهم التاريخ مواقفَ مشرقةً ومشرِّفة تُجاه القضايا الاجتماعيةِ والحضارية في زمانهم ومكانهم. وفي سنة ١٥٣٥م احتلَّ الإسبانُ تونسَ، ودام احتلالهم الغاشمُ أربعين سنةً، وكان نَكبة كبيرة حقًّا حصلتْ خلالها مصائبُ عظيمةٌ ونوائبُ جسيمةٌ، وقد قام علماءُ الزيتونة في تونسَ بدور كبير في الدفاع عن العلوم الإسلامية أثناءَ فترةِ الاحتلالِ الإسباني، حيث حافظوا على الهويّة الأصليةِ لتونسَ، ثمّ في ظلِّ الاحتلالِ الإسباني الغاشم استنجد الأميرُ رشيدٌ أخو السلطانِ محمدِ بنِ الحسن الحفصي بالعثمانيين لتحرير تونسَ من هذا الاحتلال، فأرسل السلطانُ سليمٌ الثاني العثماني أسطولًا بحريًّا مكوّنًا من نحو ألف سفينة بقيادة سنانٍ باشا الذي تمكَّن من طرد الإسبان، وبذلك قضى على الوجود الإسبانيّ في ربوع تونسَ وشمالِ إفريقيا، وبدأ الحكمُ العثماني الذي دام في تونسَ قرابة ٣٥٠ سنة.

الكلمات المفتاحية: علماء تونس، جامع الزيتونة، الاحتلال الإسباني، الحكم العثماني، المتغيرات.

XVI. Asırda Tunus Zeytûne Âlimleri ve Medenî Değişim Konusundaki Tutumları

Doç. Dr. Halil İbrahim KUTLAY

Özet

Allah'ın kâinattaki ilahî kanunlarından biri, sürekli sosyal değişim, gelişim ve ilerlemenin meydana gelmesidir. Bu da ancak insanların değişimi ile, ilerleme ve gelişime duydukları şiddetli arzu ile gerçekleşir. İbn Haldun diyor ki: "Medeniyet ancak ilerlemeye erişme konusunda insanların açık bir kararlılık sergiledikleri, ilim ve hayata hizmet için kendilerini buna hazırladıkları takdirde gelişebilir." Fakat bu konuda değişimle birlikte asîl kimliği koruma şarttır. Zira tarih boyunca İslâm ümmetinin karşılaştığı en önemli medenî ve sosyal değişikliklerde ilerlemeye erişme konusunda ilim erbabının açık bir kararlılık gösterdikleri ve bariz bir rol oynadıkları görülmektedir. Bu alimler arasında Tunus'taki Zeytûne alimlerinin kendi zamanlarında ve bölgelerinde gelişen sosyal ve medenî değişime karşı tarihin tescil ettiği parlak ve şerefli sayfalar vardır. Milâdî 1535 yılında İspanyollar Tunus'u işgal etmiş, bu zalim işgal harekâtı kırk yıl sürmüştü. Bu işgal, yaşanan büyük belalar ve acı olaylar dikkate alındığında büyük bir felâketti. Bu zalim işgal esnasında Sultan Muhammed b. Hasen el-Hafsî'nin kardeşi Emir Reşid Tunus'u işgalden kurtarmaları için Osmanlılardan yardım talep etti. Sultan II.Selim İspanyolları kovmaya muvaffak olan Sinan Paşa komutasında bin gemiden meydana gelen bir donanma gönderdi. Böylece Kuzey Afrika'da ve Tunus'ta İspanyol varlığı sona erdi ve 350 yıl sürecek olan Osmanlı hakimiyeti başladı.

Anahtar Kelimeler: XVI. Asır, Tunus, Zeytûne alimleri, medenî değişim.

Tunisian Zaytuna Scholars in the 16th Century and Their Attitudes to Civil Change

PH. Dr. Halil İbrahim Kutlay

Abstract

One of the divine laws of Allah in the universe is the continuous occurrence of social change, development and progress. And this can only happen through people's change, their ardent desire for progress and development. Ibn Khaldun says: "Civilization can only develop if people show a clear determination to reach progress and prepare themselves for it to serve science and life." However, with this change, it is necessary to protect the original identity. For throughout history, scholars have shown a clear determination and played a prominent role in achieving progress in the most important civil and social changes faced by the Islamic Ummah. Among these scholars are the Zaytuna scholars in Tunisia for whom history has registered bright and honourable pages against the social and civil change that developed in their time and region. In 1535 A.D., the Spaniards occupied Tunisia, and this cruel occupying operation lasted forty years. This occupation was a great disaster due to the great troubles and painful events. During this cruel occupation, Sultan Muhammad b. Emir Rashid, brother of Hasen al-Hafsi, requested help from the Ottomans to save Tunisia from occupation. Sultan Selim II sent a navy consisting of a thousand ships under the command of Sinan Pasha, who succeeded in expelling the Spaniards. Thus, the Spanish presence in North Africa and Tunisia ended and the 350-year Ottoman domination began.

Keywords: 16th century, Tunisia, Zaytuna scholars, civil changes.

مقدِّمة

من سُنن اللهِ تعالى في الكون وجودُ التغيرِ الاجتماعيّ والتطوُّر والتقدُّم، ولا يتِمُّ ذلك إلّا بتغير الأنفس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ، حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾،[١] ولا يتِمُ تغيير الأنفسِ إلّا بالعلم والتربيةِ والتزكيةِ، ولا يتحقَّق ذلك إلّا برغبة أكيدةٍ في الوصول إلى التقدُّم والتطوُّر.

قال العلّامة المفكِّر عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله: «إنّ الحضارة تنشأ حينما يستلهِم الناسُ عزمًا واضحًا على بلوغ التقدُّمِ، ويُكرِّسون أنفسَهم تبعًا لذلك لخدمة الحياةِ والعلم.» اهـ. ولكنْ يُشترط في ذلك الحفاظُ على الهويّة الأصليّةِ من التغيُّر، دون أن يطغى أحدُهما على الآخر، وإلّا يتحوَّل التغيُّرُ إلى ضياعٍ وذَوَبانٍ وانسلاخٍ عن الهويّة، ولا يتحقَّق ذلك إلّا عن طريق جهودِ العلماءِ المخلصين لله الذين يُصلحون ما أفسده الناسُ.

وليس من العسير على كلِّ متصفِّحٍ للتاريخ أن يكتشف ما يزخَرُ به العالمُ الإسلامي العزيز من أمجادٍ وفتوحاتٍ عظيمةٍ، ساهم في صناعتها أبناءُ هذه الأمّةِ على مرِّ الأجيالِ والعصور، وفي مقدَّمتهم علماءُ المسلمين الذين سطَّروا صفحاتٍ مشرقةً في التاريخ الإسلامي.

فطَوالَ التاريخِ كان للعلماء عزمٌ واضحٌ ودورٌ بارزٌ في أهمِّ المتغيِّراتِ الحضاريةِ والاجتماعية التي مرَّتْ بها أمَّتُنا، وذلك لإيمانهم الراسخِ بأنّهم مكلَّفون بإحياء نفوسِ العبادِ والبلاد وقيادتِها إلى الخير والصلاحِ بعون الله تعالى. وقد كان من بين هؤلاء "علماءُ الزيتونة" الذين سجَّل لهم التاريخُ مواقفَ مشرقةً ومشرِّفة تُجاه القضايا الاجتماعيةِ والحضارية في زمانهم ومكانهم. كما سنبيّنُه في هذا المقال.

جامعُ الزَّيتونة

يُعتبر جامعُ الزَّيتونةِ في تُونُسَ منارةً إسلاميةً علميةً شامخةً أسهمت في تنوير

١ سورة الرعد: الآية ١١

الأمّةِ الإسلاميةِ بعلماءَ صالحين ومُصْلِحين وباحثين متبحِّرين في المجالات العلميةِ والثقافية والاجتماعية منذ أكثرَ من ١٣٠٠ سنة؛ ويُعرف بالجامع الأعظم، كما يحلو لأهل تُونسَ أن يُسمُّوه؛ وقد تحَّول من مسجدٍ إلى جامعة إسلاميةٍ منذ اللحظاتِ الأولى من تأسيسه، وتخرَّج به علماء أجلَّاء، واستعصى على الذَّوَبان والتلاشي أمامَ الاضطراباتِ الحضارية والتقلُّباتِ التاريخية، وهو ثاني أكبرِ الجوامعِ التي أُقيمت بإفريقيّة بعد جامعِ عقبةَ بنِ نافعٍ المشهورِ بالقَيْرَوان.

وكان أوَلَ مَن ابتدأ بناءَ جامعِ الزَّيتونة القائدُ العظيم حسَّانُ بنُ النُّعمان الغسَّاني (ت ٨٠هـ/٧٠٠م) حين فتح تُونُسَ عام ٧٩هـ، ثمّ جاء بعده عُبيد الله بن الحَبْحابِ السَّلُولي والي إفريقيّةَ في عهد الخليفةِ هشامِ بنِ عبدِ الملك الأموي، فأتمَّ بناءَه في عام ١١٤هـ.[١]

وأصبح جامعُ الزَّيتونة منارةً من منارات العلمِ التي شُدَّت إليها الرِّحالُ من المشرق والمغرب؛ إذ بدأ التعليم فيه مبكّرًا عام ١٢٠هـ، وارتبط بذِكره علماء أفاضلُ ورجالٌ صالحون ومصلِحون مجدِّدون، وقد بدأ فيه التعليمُ بكرسيٍّ يجلِس عليه الشيخُ على عادة المشايخ في المساجد التاريخيةِ القديمة، إلى أنْ تأسَّست فيه جامعةٌ بمعنى الكلمةِ في منتصف القرنِ الثامنِ الهجريّ، وكان لها مناهجُ ونظمٌ وإجازاتٌ مشهورةٌ، وما زالت تزخَر بمجالسَ علميةٍ إلى أن احتلَّ الإسبانُ تُونُسَ في سنة ١٥٣٥/٩٤١م.

الاحتلال الإسباني

كانت إسبانيا في القرن السادسَ عشرَ الميلاديّ أقوى دولةٍ استعماريةٍ في البحار بفضل أسطولِها القويّ، وكانت تَعْتبر نفسَها الدولةَ الكاثوليكية الأُولى، وأنّ عليها نشرَ الكاثوليكيةِ في العالم، ولذا فقد اجتثَّت الوجودَ الإسلامي في الأندلس، وفي المقابل كانت الدولةُ العثمانية أقوى دولةٍ برّية في ذلك الوقت، وحاميةً حِمَى

١ علي بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير الجزري، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية بيروت هـ١٤٠٧/١٩٨٧م: ٤/٢٢٥، محمد الهادي الزمزمي، مقال: الحرب على جامع الزّيتونة في الحقبة العلمانية، انظر الرابط التالي:
https://yatounes.blogspot.com/2009/04/blog-post_08.html

الإسلامِ، وهكذا كانت الدولةُ العثمانية والإمبراطورية الإسبانية تتصارعان من منظورٍ واحدٍ؛ وهو الحرب بين الكاثوليكية وبين الإسلام.[١]

فقد احتلَّ الإسبان تونسَ سنة ٩٤١/١٥٣٥م، حيث جاءوا إلى تونسَ بطلب من السلطان أبي عبد الله محمد بن الحسن الحفصي الذي استنجد بشارلَ الخامسِ ملكِ إسبانيا (١٥١٩-١٥٥٨م)، ضدَّ أخيه الأصغرِ رشيد، فكان هذا الاحتلالُ كارثةً على العلم والحضارةِ بالبلاد التونسية عمومًا وعلى جامع الزيتونةِ خصوصًا، وداستْها الكفرةُ بالأرجل، وأُلقيت تصانيفُ الدينِ بالأزقَّة تدوسُها حوافرُ الخيل!! كما قال الوزير أبو عبد الله محمد بن محمد السراج الأندلسيُّ الأصلِ التونسيُّ الميلادِ (ت ١١٤٩هـ/١٧٣٦م).[٢]

وقال محمدُ بنُ محمد مخلوف عن هذه النَّكبة: «عاثت عساكرُ الإسبانِ في الأرض، وربطوا خيولَهم بجامع الزيتونة، واستباحوا ما به وما بالمدارس من الكتب العلميةِ، وألقَوها في الطرق يدوسها العسكرُ بخيولهم، وهذا هو السببُ في قِلَّةِ تآليفِ الفحولِ من هذا القِطر، فإنّها ذهبت شَذَرَ مَذَرَ.»اهـ.[٣]

وقال الفقيه المؤرخ التونسي محمد بن سعيد مقديش (ت ١٢٢٨ه/١٨١٣م) عن سطوة الإسبانِ وقَمْعِهم لأهل تونسَ عامّة والمسلمين خاصّة: «وقُسمت المدينةُ بين المسلمين والنصارى وأُهين المسجدُ الأعظم، ونُهبت خزائنُ الكتبِ التي كانت به، وداستها الكفرةُ بالأرجل، وأُلقيت تصانيفُ الدينِ بالأزقَّة تدوسها حوافرُ خيلِ الكفّار، حتى قيل: إنّ أزقّة الطيبيين بجانب جامعِ الزيتونة كانت كلّها مجلّداتٍ ملقاةً تحتَ الأرجلِ، وضُربت النواقيس، وربطوا الخيلَ بالجامع الأعظم، ونُبش قبر سيدي

١ انظر لزامًا مقال الشيخ محمد زاهد أبو غدة، بعنوان فتح الجيش العثماني بقيادة سنان باشا الحصن الإسباني الأخير في حلق الوادي بتونس https://islamsyria.com/site/show_articles/7975

٢ أبو عبد الله محمد بن محمد الأندلسي المعروف بالوزير السراج، الحلل السّندسيّة في الأخبار التّونسيّة، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٥م: ٢/٢١٤

٣ محمد بن محمد بن عمر بن قاسم بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تعليق عبد المجيد الخيالي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م: ٢/١٧٣، وانظر ايضًا: حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، ط (٣)، دار الكتب العربية الشرقية، تونس، ١٣٧٣هـ/١٩٧٠م: ص ١٣٥

محرز بن خلف (ت ٤١٣هـ/١٠٢٢م)، فلم يجدوا به إلّا الرمل.»اهـ[١] سلَّم الله البلادَ من الفِتن والمِحن.

فخرج من تونسَ عند احتلالِ الإسبانِ الكثيرُ من العلماء والفضلاء إلى المشرق والمغرب، ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد مغوش الذي هاجر إلى المشرق، وأبو الفضل خروف الذي هاجر إلى فاس، وأبو الطيب الظريف التونسي الواعظ بجامع الزيتونة الذي رحل إلى فاس أيضًا.[٢]

وكان القاضي شيخ الإسلام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد مغوش الكرمي التونسي المالكي (ت ٩٤٧هـ/١٥٥٠م) قد رحل من طريق البحر إلى القِسْطنطينية، فكرَّمه السلطان سليمان بن سليم القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م)، فأكرم مثواه، وشاع فضلُه بين العلماء. وعُيِّنَ قاضيًا للعسكر في القسطنطينية، وكان فقيهًا ومحدّثًا ومفسّرًا ومقرئًا وعالمًا بالنحو والمنطق والكلام، فقد أخذ عنه جماعةٌ من أعيانها. وبه وبأمثاله بدأت الصِّلَةُ العلمية القريبة بين علماء تونسَ والعلماءِ العثمانيين. وكان من آثاره: أمالٍ على شرح الشاطبية للجَعْبَريّ.[٣]

وقد ذكره العلامةُ أحمدُ بنُ مصطفى الشهيرُ بطاشكبرى زاده في الشقائق النعمانية[٤] بين شيوخِه الأجلّاء، حيث حصل منه على إجازة بصحيح البخاريّ والشّفا للقاضي عِياضٍ، ووصفَه بأنّه كان آية كبرى من آيات الله في الفضل والتدقيقِ والحِفظ والتحقيق، ومع ذلك كان ليّن الجانبِ طارحًا للتكلُّف متَّصفًا بالأخلاق الحميدة، ولم يزل بها مبجَّلًا، وكان مسكنُه بها في عمارة محمود باشا، وبقي هناك مدّة، ثمّ استأذن من السلطان سليمانَ في الرِّحلة، واعتذر بعدم صبرِه على شتاء بلادِ

١ محمد سعيد مقديش أبو الثناء الصفاقسي التونسي، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق على الزواري ومحمد محفوظ، ١/٥٥٥. https://al-maktaba.org/book/33342/622#p1

٢ مخلوف، شجرة النور الزكية: ١٧٣/٢

٣ عمر رضا كحَّالة، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، دار التراث العربي، بيروت بدون تاريخ: ٢٦١/١١، خير الدين بن محمود الزِّرِكْلي الدمشقي، الأعلام قاموس تراجم، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م: ٢٨٥/٧

٤ أحمد بن مصلح الدين مصطفى المعروف بطاشكبرى زاده، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية: نشره أحمد صبحي فرات، في منشورات جامعة إسطنبول، ١٩٨٥م: ص ٥٥٥-٥٥٦.

الرُّوم، فرحل في سنة ٩٤٤هـ إلى حلبَ ثمّ طرابلسَ ثمّ دمشقَ وتوفّي في مصرَ، واستفاد منه أهلُ هذه البلادِ، رحمه الله رحمةً واسعة.[١]

الحكم العثماني

دام الاحتلالُ الإسباني لتونسَ أربعين سنةً، وكان نكبةً كبيرةً حصلت خلالها مصائبُ عظيمة ونوائب جسيمة، كما قال مخلوف، وقد فعلوا ما ينبو عنه السماعُ ويُبكي العيون دمًا ويُذيب القلوب ألمًا، وفعلوا مثلَ ذلك بالمدائن المهديةِ والمنستيرِ وغيرِهما من المحارس والقصور تخريبًا وقتلاً وأسرًا، وقتل الطاغيةُ المذكورُ نحو ثمانين ألفًا، وأسِرَ مثلَ ذلك. وقال: ثمّ تَداركها اللهُ بالتفات السلطنةِ العثمانية، فأنقذتْها من مخالب هذا الطاغية في جمادى الأولى سنة ٩٨١هـ، وكان هذا الفتحُ من أهمِّ الفتوحاتِ الإسلامية والمآثرِ الخالدة في إفريقيّةَ لهذه الدولة السنية.»اهـ.[٢]

وفي ظلِّ الاحتلالِ الإسباني الغاشم استنجد الأميرُ رشيدٌ أخو السلطان محمد بن الحسن الحفصي بالعثمانيين لتحرير تونسَ من هذا الاحتلالِ، فما كان من السلطان سليمٍ الثاني العثماني (١٥٦٦م-١٥٧٤م) إلّا أنْ لبّى نداءَ النُّصرةِ، فأرسل أسطولًا بحريًّا مكوّنًا من نحو ألفِ سفينةٍ بقيادة سنان باشا (ت ١٠٠٤/١٥٩٦م) الذي تمكّن من طرد الإسبانِ، بعد فتح حصنِهم الأخيرِ في حلق الوادي بتونسَ، سنة ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م.

وقد كتب (آلونسو دو سالامنكا) باللغة الإسبانية تفاصيلَ هذا الأسطولِ البحريّ العثمانيّ، في ذكرياته المحفوظة في قسم المخطوطاتِ في المكتبة الملكية في مدريد، حيث كان من الجنود الإسبانِ الذين شاركوا في هذه الحروب، ثمّ أُسر في الحرب ونُقل إلى إسطنبول.[٣]

---

١ نجم الدين محمد بن محمد الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، ط (١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٧م: ١٥/٢

٢ مخلوف، شجرة النور الزكية: ١٧٤/٢

٣ كاستريللو، ريكادو غونزاليس، مقال "دفاع عن حلق الوادي في تونس في ١٥٧٤م"، وعنوانه الأصلي
Ricardo Gonzáles Castrillo, "La Perdida de la Goleta y Túnes 1574 y Otros Sucesos de Historia Otomana,

وبذلك تمَّ القضاءُ على الوجود الإسباني في ربوع تونسَ وشمالِ إفريقيا، وتحولت تونسُ بعدها إلى ولايةٍ عثمانية، على رأسها سنانٌ باشا الذي يمثّل السلطانَ العثماني، وأَسَّس للوجود العثمانيّ الذي سيدوم في تونسَ قَرابة ٣٥٠ سنة.

وقد ذكر المؤرّخ الجزائريُّ أبو القاسم سعد الله أنّ هناك أسبابًا للخضوع والولاءِ للأمراء العثمانيّين، دينيةً كانت أو دنيوية، فمنها: تأييدُ الخلافةِ إيّاهم بما يُكْسِبهم الشرعيةَ، ومنها: استجابتُهم لداعي الجهاد، لا سيَّما في أوائل عهدِهم، حيث جلب الجهادُ غنائمَ الغزواتِ البحرية، ومنها: سعيُ الأمراءِ إلى كسب وُدِّ المرابطين ومهاجري الأندلسِ عن طريق الهدايا والإعفاءاتِ الضريبيةِ في مقابل التأييد، ومنها غيابُ الفكرةِ الوطنية بمفهومها الحديث.[١]

قال الأستاذُ الدكتور محمد الدرَّاج الجزائري وهو أحد الباحثين البارعين في التاريخ العثماني: "على مدى ثلاثةِ قرونٍ وتحديدًا منذ سقوطِ غرناطةَ سنة ١٤٩٢م، حتى مطلعِ القرنِ التاسعَ عشرَ، كان المسلمون إذا قرعتْهم داهيةٌ أو تعرَّضوا لعُدوان من كافر لا قِبَلَ لهم به، يَهرَعون إلى السلطان العثماني لائذين به آملين في نُصرته دون غيرِه من حكام المسلمين، ولم يكن المسلمون أو ملوكُهم مَن يفعل ذلك فحسب؛ بل كان المستضعفون والمظلومون من النّصارى وملوكِهم ونُبلائِهم في أوربا يحتمون بالسلطان العثماني كلّما نابتْهم نائبةٌ من عدوّهم. وخلال ذلك لم تكن الدولة العثمانية تتردَّد في التدخل بأساليبَ شتَّى."[٢]

وبالمناسبة يجب علينا أن نفرّق بين (الاحتلالِ) و(الحكمِ)، حتى لا تغلِب علينا الثقافةُ الأجنبية، فإنَّ العدوَّ يحتلُّ البلادَ ويستغلُّ جميعَ النِّعَمِ والإمكانيات لمصالحه، ويبتزُّ الموارِدَ الطبيعية وثرواتِ البلادِ، ولا يُريد إلّا الفسادَ، وأمّا الحاكم المسلم أيًّا كانت جنسيَّتُه عندما حكمَ البلادَ، فهو يُراعي العدلَ في الحكم، ويُناصر إخوانَه في

١ عبد اللطيف الهرماسي الجزائري، المجتمع والإسلام والنخب الإصلاحية في تونس والجزائر، دراسة مقارنة من منظور علم الاجتماع التاريخي، نشره المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م: ص ٢٥

٢ محمد الدرَّاج الجزائري، مقال: "لماذا كانت الدولة العثمانية تتدخل لحماية المسلمين"، المنشور في الرابط التالي: https://m.facebook.com/story.php?story_fbid=469747261354231&id=100049568843943

الدين، ويساعد مَن يستنجد به، مع أنّ الأفضلَ والأنسب طبعًا أن يحكمَ البلادَ رجالٌ من أبناء الوطن، فإنْ حدث هناك أيُّ تنازُعٍ علميٍّ أو سياسي أو اقتصادي وما إلى ذلك، كان على المسلمين جميعًا تحكيمُ كتابِ الله وسنةِ رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

وقد انضمّت تونسُ عام ١٥٧٤م للدولة العثمانية، وظلّت معها ٣٠٠ عامًا، وهذه الفترةُ تحتاج دراسةً علمية شاملة من خلال الوثائقِ العثمانية الذي يزخَر بها الأرشيفُ التركيُّ، علمًا بأنّ الأرشيف التركيَّ به أكثر من ١٥٠ مليون وثيقةٍ عثمانية من بينها ٥ ملايين وثيقةٍ عن القدس، ونحو ٥٠ ألف وثيقةٍ عن تونسَ، كما بيَّن ذلك الدكتور مصطفى الستيتي الباحث التونسي في الوثائق العثمانية في كلمته في ندوة "العلاقاتُ التونسية التركية، ماضٍ وحاضرٌ" التي نظّمها مجلسُ الجاليةِ التونسية بقطر بالتعاون مع السفارتين التركية والتونسية في ٢٢ أبريل ٢٠١٣م، حيث قال: « في كُتبِ التاريخِ في المدارس أنّ تونسَ وقعت تحت الاحتلالِ العثماني في القرن السادسَ عشرَ، بما تعنيه كلمةُ الاحتلالِ من معانٍ، ولكنِ اليومَ بعد أن تعرَّفنا على ما تحويه الوثائقُ العثمانية في الأرشيف التركي تبيَّن لنا أنّ كُتُبَ التاريخِ قد أفسدت الكثيرَ في العلاقات بين تركيا وتونس.»اهـ[١]

كما ذكر الدكتور مصطفى الستيتي التونسي أنّ هذه الوثائق تشكِّل بحدِّ ذاتِها أرشيفٌ يساهم في إنارة فترةٍ من تاريخنا، ويُثبت لنا أنّ الحديث عن احتلالٍ عثماني لتونسَ ليس صحيحًا. وتعرَّض الباحثُ التونسي لعددٍ من الوثائق كمحطاتٍ مهمّةٍ تعكِس طبيعةَ العلاقةِ بين البلدين.[٢]

وهو ما أكَّده الكاتبُ التونسي أنيس العرقوبي أحد الخبراء في تاريخ تونس في مقاله "أثر الحكم العثماني في التحولات الاجتماعية بتونس"، حيث قال: «بداية لم يكن للشعب التونسي أيُّ مشكلةٍ مع الوجود التركي، كما لم تكن وفودُهم

١ مصطفى الستيتي التونسي في ندوة "العلاقات التونسية التركية، ماض وحاضر" في قطر، انظر الرابط التالي: تركيا/ الأرشيف العثماني يُصلح ما أفسده التاريخ مع تونس https://www.aa.com.tr/ar/253333

٢ مصطفى الستيتي التونسي، البحث المشار إليه آنفًا.

محلَّ تساؤلٍ أو إثارة لإشكاليات بعكس المشارقة الذين اعتبروه استعمارًا وهيمنةً واحتلالًا، وهو رأيٌ يحتاج أيضًا إلى التدقيق والنقاش والتحليل استنادًا إلى الوثائق والأرشيف.

ويُمكن اعتبار أنّ الاختلاف في رؤية الوجودِ العثمانيّ بتونس عن غيره من البلدان يرجع أوّلًا إلى العامل الدينيّ الذي كان حاسمًا في شمال إفريقيا، حيث اعتبرتْه الشعوبُ المغاربية امتدادًا للخلافة الإسلامية، ومن الطبيعي أن تكون تلك الدولُ تحت حكمِ الخلافةِ المسلمة، فيما ذهب رأيٌ آخر إلى أنّ قبول التونسيين للأتراك يعود إلى الشرعية التي اكتسبوها حينما دخلوا البلاد بطلب من أصحاب الأرضِ لصدِّ الاحتلالِ الإسباني وطردِهم، وكذلك للسياسة المتَّبعةِ من طرف "الباب العالي" الذي لم يفرض وصايا واضحةً على الأراضي والممتلكات التونسية ولم يترك تنظيمًا سياسيًا، ولا فرضَ لغتَه التركية التي تُوحي بعلاقة تبعيةٍ للسلطنة العثمانية، وإنّما على العكس من ذلك فقد ترك العثمانيون حاميةً من الجيش الإنكشاري يرأسها "داي" لحماية البلادِ من أيِّ عُدوانٍ كان، وعَهِدَ بتنظيم الدولة للأهالي وللقبائل التي كانت علاقتُها بالحامية التركية علاقةَ تفاهُمٍ وتعاوُنٍ، وهو ما يُفنِّد أطروحةَ "الاحتلال الأجنبي" المصطلح الذي التصق بصورة ثابتةٍ بالفترة الإسبانيةِ والاستعمارِ الفرنسي.»اهـ[1]

وفي السياق ذاتِه قال المؤرّخُ التونسي عبد الجليل التميمي: «إنّ مَن يدّعي أنّ الوجود العثماني استعمارٌ فهو غباءٌ معرفيٌّ ينِمُّ عن جهلِ قائلِه بصفحات التاريخِ والوقائع التي شهدتْها تونسُ في تلك الفترة، مضيفًا أنّ الوثائق التركية أكّدتْ بشكلٍ لا يدع مجالًا للشكِّ أنّ العثمانيين قدموا إلى تونس والجزائر بعد طلبٍ ومراسلاتٍ من الأهالي الذين تعرَّضوا للجَوْر والظلم.»اهـ[2]

١ أنيس العرقوبي، مقال "أثر الحكم العثماني في التحولات الاجتماعية بتونس"، المنشور في الرابط التالي: https://www.noonpost.com/content/36529

٢ كما نقله عنه الكاتب أنيس العرقوبي في مقاله بعنوان: "بين الغزو والفتح، تونس من سطوة الإسبان إلى إيالة عثمانية" في الرابط التالي: https://www.noonpost.com/content/36428

العلماء المبرّزون في القرن السادسَ عشرَ الميلاديّ والذي يليه في تونسَ

توالت طبقاتُ العلماءِ في تونسَ قرنًا بعد قرنٍ، حتّى امتاز كلُّ قرنٍ عمّا سبقه بنُخبة من العلماء وأفاضلِهم، ففي القرن العاشر تولَّى الأميرُ أبو عبدِ الله محمدٌ الحفصيّ إمارةَ تونسَ، وقد عُرف بعنايته الفائقةِ بالعلم وأهلِه، فأنشأ مكتبةً بجامع الزَّيتونة عُرفت بالمكتبة العبدليَّة. وكان الحفصيّون يجلُّون العلمَ والعلماء، وبعدهم احتلَّ الإسبانُ البلادَ أربعين سنةً، ثمّ جاء العثمانيّون.

وبحكم الارتباطِ القائمِ بين تونسَ والخلافةِ العثمانيّة فقد حلَّ بتونسَ بعضُ العلماءِ العثمانيّين فانتشرت بسببهم العلومُ، وازدهرت الحركةُ العلميّة من جديد بعد الاحتلالِ الإسباني، وكان من هؤلاء العلماءِ الشيخُ (ملّا أحمد)، وكان نابغةً في الفقه والأصولِ والتفسير والنحو والبيان والمنطق، فتخرَّج عليه جماعةٌ من أعلام القرنِ الحاديَ عشرَ، مثلُ الشيخِ محمدٍ الغمَّادِ والشيخِ أبي يحيى بنِ قاسمٍ الرصّاع، وتلميذِه الشيخ أبي عبدِ الله محمدٍ تاجِ العارفين بن أبي بكرٍ التونسي، وبذلك استأنفت الحركةُ العلمية ازدهارَها.[١]

ففي العهد العثمانيّ كان قاضي الجماعة (بمعنى قاضي القضاة) يتِمُّ تعيينُه من قِبل الخلافةِ، وكان وكيلُه قاضيًا تونسيًّا يُعيَّن من علماء أهلِ البلاد، وكان لعلماء الزيتونة استقلالٌ بالفتوى والتدريس، كما كانت لهم مكانةٌ عاليةٌ لدى الأميرِ العثماني على تونس، ويسمّى (بايْ) ويعني السيد.

وقد اشتهر من رجال جامعِ الزيتونة في القرن السادسَ عشرَ الميلاديّ وفي القرن الذي يليه علماء أفاضلُ، منهم:

١. العلّامةُ أبو عبد الله محمدُ بن إبراهيم الأندلسي الأنصاري التونسي (ت ٩٧٠هـ/١٥٦٢م) إمامُها وخطيبُها بجامعها الأعظمِ الفقيهُ العلّامةُ الفاضلُ.[٢]

١ محمد الهادي الزمزمي، مقال: الحرب على جامع الزّيتونة في الحقبة العلمانية، ص ٢

٢ مخلوف، شجرة النور الزكية: ٤٠٨/١ رقم ١٠٨٦، أحمد بن محمد المكناسي المعروف بابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، بتحقيق محمد الأحمدي أبو النور، ١٣٩١هـ/١٩٧١م: ٢٦٨/١ ، المكناسي، لقط الفرائد: ص ٣١٩

٢. العلّامةُ الشيخ المفتي أبو الفضل قاسمُ بن أبي القاسم البرشكيّ التونسي (ت ٩٩٠هـ/١٥٨٢م) فقيهُها وعالمُها وخطيبُها بعد الأنصاريّ المذكور.[١]

٣. العلّامةُ الشيخ أبو عبد الله محمد بن سلامةَ التونسي (ت ٩٩٣هـ/١٥٨٥م) إمامُ جامعِ الزيتونة وخطيبُه بعد البرشكي، الفقيهُ المفسِّرُ الواعظُ.[٢]

٤. العلّامة الشيخ المفتي أبو النجاة سالمٌ النفاتي التونسي: هو أوّلُ مَن كسا القضاءَ بتونسَ من حين احتلت العساكرُ العثمانية عظمةً وكرامةً وزانَها بشهامته فخامةً.[٣]

٥. العلّامةُ الشيخ أبو عبد الله محمد الأندلسي التونسي (ت ١٠١٧هـ/١٦٠٨م) إمامُها وخطيبُها بجامعها الأعظمِ بعد الشيخِ محمدِ بنِ سلامة، الأستاذُ النحوي الفاضل الفقيه العالم العامل. أخذ عن أبي العباس أحمد العيسى،[٤] وأخذ عن الشيخ مغوش، وأخذ عنه الشيخ أبو يحيى الرصّاع.[٥]

٦. العلّامة الشيخ أبو يحيى بنُ الوزيرِ قاسم الرصَّاع التونسي (ت ١٠٣٣هـ/١٦٢٣م) صهرُ الأميرِ أحمدَ الثالثِ سلطان بن محمد الحسن المعروف بحميدة الحفصي (ت نحو ٩٨٠هـ/١٥٧٢م)[٦]. ولي الإمامةَ والخِطابة بجامع الزيتونةِ سنة ١٠١٧هـ في دولة المرحومِ عثمان داي، واستمرّ عليها سبعةَ عشرَ عامًا أو ثمانية عشرَ عامًا.[٧] وذكره مؤلِّفُ شجرةِ النورِ الزكيةِ بقوله: "ووالده كان وزيرًا لحميدة

١ مخلوف، شجرة النور الزكية: ٤٠٧/١ رقم ١٠٨٦

٢ مخلوف، شجرة النور الزكية: ٤٠٨/١ رقم ١٠٨٩، المكناسي، درة الحجال: ٢٢٧/٢، المكناسي، لقط الفرائد: ص٣٢٠

٣ مخلوف، شجرة النور الزكية: ٤٤١/١ رقم ١١٩٩، ٤٢٣/١ رقم ١١٤٤

٤ مخلوف، شجرة النور الزكية: ٤٢٣/١ رقم ١١٤٢

٥ أبو الفداء إسماعيل التميمي، برنامج المقدمين للإمامة والخطابة بالجامع الأعظم من لدن الشيح الإمام ابن عرفة فمن بعده، بتحقيق حمدي بن الحبيب البدراني، نشرته دار الكتب العلمية في بيروت، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م: ص٨١

٦ الزركلي، الأعلام: ١١/١، حسن حسنى عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس: ص ١٢٧-١٢٩، فؤاد صالح السيد، معجم ألقاب السياسيين في التاريخ العربي والإسلامي، مكتبة حسن العصرية، بيروت، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م: ص ٢٢٨

٧ التميمي، برامج المقدمين للإمامة والخطابة: ص ٨١

الحفصيّ، ومات شهيدًا بغزوة حلقِ الوادي، الفقيهُ العلّامةُ المفسِّر المفتي الفهّامة، كان خطيبًا بجامع الزيتونةِ بعد أن استقال من الفُتيا، ولازم القيامَ بها أحسنَ قيامٍ."اهـ[١]

٧. العلّامة أبو عبد الله محمد تاج العارفين بن أبي بكر التونسي (كان حيًّا في ١٠٣٧هـ/١٦٢٧م): استمرّت إمامةُ جامعِ الزيتونة والخطابة في بيته وبين بنيه مائةً وثلاثةً وسبعين عامًا، وكانت ولايتُه بإشارة من شيخه الرصّاع، وقام بها وزانَ المِحرابَ والمِنبرَ بعلمه وعملِه وصلاحِه مع فصاحةِ اللسانِ وثَباتِ الجَنانِ، وكان زينةً للجامع، يقرئ فيه صحيحَ البخاري ودروسًا في علوم الدين.[٢]

موقف علماء الزيتونة من المتغيرات الحضارية

لقد تخرَّج من الزيتونة آلافُ العلماءِ والمرشدين والمصلحين الذين بذلوا جهودًا مشكورةً لإصلاح الأمّةِ والنهوضِ بها، وكان منهم شيخُ الإسلامِ وشيخُ جامعِ الزيتونةِ الإمامُ أبو عبد الله محمدُ بنُ محمدِ بنِ عرفةَ التونسيُّ المالكي (ت ٨٠٣هـ/١٤٠٠م)[٣] وكان إمامًا حافظًا، فقيهًا أصوليًّا ماهرًا في العلوم كلِّها، إليه المرجع في الفتوى. ومن تصانيفه: المبسوطُ في الفقه المالكي في سبعة أسفار، ومنظومةٌ في قراءة يعقوب، ومختصرٌ الفرائض، ومصنَّفٌ في المنطق، والمختصرُ الشامل في أصول الدين.[٤]

وكان من معاصريه من علماء تونس: المؤرِّخُ المفكِّر الأديب السياسي المشهور العلّامةُ عبدُ الرحمن بن خلدون التونسيُّ الأصلِ ثمَّ المغربي ثمّ المصري (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) صاحبُ المقدِّمة المشهورة في التاريخ، ويُعتبر مؤسِّسَ علمِ الاجتماع.

وقد عُرف علماءُ الزيتونة طَوالَ التاريخِ بالاستقامة والاعتدال والأصالة والإصلاح وعدمِ التنازُل عن الكتاب والسنة لمصالحَ دنيويةٍ، وبتقديمِهم لمصالح

١ مخلوف، شجرة النور الزكية: ٤٢٤/١ رقم ١١٤٦
٢ مخلوف، شجرة النور الزكية: ٤٢٥/١ رقم ١١٤٦
٣ التميمي، برامج المقدمين للإمامة والخطابة: ص ٨٠
٤ كحالة، معجم المؤلفين: ٢٨٥/١١

المجتمعِ على مصالحهم الشخصيةِ، كما عُرف عنهم مقاومتُهم للاحتلالَ الإسباني خيرَ مقاومةٍ، كما وقفوا في وجه المدِّ الشيعيّ زمنَ العُبيديين من قَبلُ.

كما قام علماءُ الزيتونةِ بما عليهم من التوجيه والتسديدِ للعثمانيين خلالَ الحكمِ العثماني للبلاد التونسيةِ؛ حيث إنّ قاضي الجماعةِ كان عثمانيًّا وكان وكيلُه تونسيًّا. ويذكر التاريخ مثلًا: أنّ الشيخ عليًّا ابنَ مفتي تونسَ سالمٍ النفاتي وأخاه محمدًا قد سافرا إلى الحجِّ ثمّ إلى الديار العثمانية، وعرَضا شِكايةً على السلطان العثماني ولقيا منه القَبولَ، وصدرت الأوامرُ السلطانية وفقَ مرادِهما.[١]

وقد رأى المفتي الحنفيُّ الشيخُ محمدُ بنُ حسين بيرم الأول (ت ١٢١٤هـ/١٧٩٩م) حاجةً إلى تأليف "رسالة في السياسة الشرعية"،[٢] يوضِّح فيها الأحكامَ الفقهيةَ المتعلِّقةَ بالإدارة والتجارة، وقدَّمها لحمودة باشا باي تونس (١٧٨٢-١٨١٤م) الذي ازدهر عهدُه بفضل التجارةِ البحرية والصناعة التونسية المحلّية، وقد حاول فيها المؤلِّفُ التوفيقَ بين المبادئِ الشرعيةِ الثابتةِ ومتغيراتِ السياسةِ ومستجِّداتِها من خلال الممارساتِ اليومية، وقد استفاد منه المصلحون في تونسَ في القرن التاسعَ عشرَ أنّ الشريعة تأخُذ بمبدأ الاستصلاحِ، وتقول بضرورة مجاراةِ تغيُّرِ العصر.

ومن المعلوم أنّ علماء تونسَ بمَن فيهم مشايخُ الزيتونة كانوا أصحابَ جرأةٍ في الدفاع عن الحقِّ، مثلًا: عندما بعث الشيخُ محمدُ بنُ عبدِ الوهاب التميميُّ النجديُّ (ت ١٢٠٦/١٧٩٢م) رسالةً لجميع البلدان الإسلامية يدعو فيها إلى اتّباع الناسِ له في دعوته والولاءِ له ويُهدِّد من خالفه بالشرك واستباحةِ قتلِه، وكانت موجَزًا لكتابه "التوحيد الذي هو حقُّ اللهِ على العبيد"،[٣] كان لها صدًى كبيرٌ في القطر التونسيّ، فطلب حمودةُ باشا باي تونس (١٧٨٢-١٨١٤م) من علماءَ البلادِ توضيحَ الحقِّ للناس، فكتب القاضي الشيخُ أبو حفص عمرُ بنُ قاسم المحجوب

١ مخلوف، شجرة النور الزكية: ١/ ٤٤٢ رقم ١١٩٩

٢ طبعت رسالة السياسة الشرعية، للشيخ محمد بن حسين بيرم الأول، بتحقيق محمد الصالح العسلي، وتقديم عز الدين بن زغيبة، من قبل مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، في دبي، في عام ١٤١٩هـ/٢٠٠٢م

٣ انظر رسالة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ورد القاضي الشيخ عمر المحجوب عليها في الرابط التالي:
http://daikiri.over-blog.com/article-81887534.html

(ت١٢٢٢هـ/١٨٠٧م)[١] ردًّا على هذه الرسالة، وكان قاضي الجماعة وإمامًا ثالثًا لجامع الزيتونة، وكان ردُّه ردًّا علميًّا مفحِمًا.[٢]

وكان ممّن ردَّ على رسالة محمدِ بنِ عبدِ الوهاب النجدي من علماء تونس: الفقيهُ الأصوليُّ الشيخُ صالحُ بنُ الحسنِ أبو الفلاح الكوَّاشُ (ت ١٢١٨هـ/١٨٠٣م)، وكان شيخَ شيوخِ البلاد، متخلِّقًا بالزهد وملازمًا للتقشُّف، لا تأخُذُه في الحقِّ لومةُ لائم، حاضرَ الجوابِ، لا يَتهيَّب فيما يخطُر بباله، سواءٌ عنده الأميرُ والمأمور في جميع الأمور. وكان أبوه كوَّاشًا، وهو الفرَّان في اصطلاح أهلِ تونس.[٣]

وقد ردَّ عليها القاضي الشيخُ أبو الفِداء إسماعيلُ التميميّ (ت ١٢٤٨ه/١٨٣٢م) بكتابه "المِنَح الإلهية"[٤]، والفقيهُ الشيخُ سيدي إبراهيمُ بنُ عبدِ القادر الرَّياحي (ت١٢٦٧هـ/١٨٥٠م).

وينبغي أن يُنوَّه هنا بالمفكِّر المصلحِ الوزيرِ خيرِ الدين باشا التونسيّ (ت١٣٠٧ه/١٨٩٠م)، ذي الجناحين الديني والدنيوي، وُلد في قرية في قوقاز في ١٨٢٠م، حيث جاء إلى إسطنبول أسيرًا، ونشأ عند تحسين بك القُبْرُصي، ثم في عام ١٨٣٧م سافر إلى تونسَ، حيث نزل في قصر حاكم تونسَ الباي أحمد باشا، وأقام عنده، وتلقَّى العلومَ الشرعية واللّغوية من علماء الزيتونةِ في تونسَ، وتخرَّجَ بهم، وفي سنة ١٨٥٢م سافر إلى باريسَ وأقام فيها ثلاثَ سنواتٍ حيث أثرى معارفَه في

١ مخلوف، شجرة النور الزكية: ٣٦٦/١، محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، ط (١)، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م: ٢٥٠/٣

٢ السمنودي، إبراهيم بن عثمان العطار السمنودي، سعادة الدارين في الردّ على الفرقتين الوهابية ومقلدة الظاهرية، وقد وسمها بالرسالة الرحمانية، دار الخلود للتراث، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م: ١٨١/٢– ١٩٢؛ أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان في أخبار ملوك تونس وعهد الأمان: ٨٦/٣-٩٧. وقد طبع الرد باسم "رسالة علماء تونس"، بمراجعة فريد عمار، شركة دار المشاريع، ١٤١٩هـ/٢٠٠٧م.

٣ أبو عبد الله محمد بن عثمان بن محمد السنوسي، مسامرة الظريف بحسن التعريف، تحقيق محمد الشاذلي النيفر، ط (١) لبنان، ١٢٨٠ه/١٨٦٣م: ٢٥٤/١-٢٥٦، النيفر، محمد النيفر، عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب، دار الغرب الإسلامي، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م: ٦٣٥/١-٦٣٩، حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م: ٥٤٦/١-٥٤٨، الزركلي، الأعلام للزركلي ٢٧٥/٣.

٤ أبو الفداء إسماعيل التميمي، المنح الإلهية، بتحقيق أحمد الطويلي، المطبعة العصرية، تونس ٢٠١٣م

الإدارة والقضاء، وأصبح يجيد اللغاتِ الثلاثَ: العربيةَ والفرنسية والتركية.[١]

علمًا بأنّ كثيرًا من المؤرّخين يُنوّهون بخير الدين باشا التونسي، ويصفونه بأنّه أحدُ رموزِ الإصلاحِ في القرن التاسعَ عشرَ في تونسَ، ولكنّهم يتغافلون عن المصدر الذي نشأ فيه، وهو جامعُ الزيتونةِ، فكان رجلًا سياسيًّا ومفكّرًا ومصلِحًا وصاحبًا للتصوُّر الإسلامي. وقد تولى رئاسةَ الوزراء بتونسَ سنواتٍ، وعُرف بانفتاحه وميلِه إلى التجديد، ثمَّ غادرَها إلى تركيا ليشغَل منصبَ الصدرِ الأعظمِ في عهد السلطانِ عبدِ الحميد الثاني (من ١٨٧٦ إلى ١٩٠٩م). وقد لخَّص تجربةَ حياتِه السياسيةِ والإدارية في كتاب "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك". ويمكنُنا أن نعتبره ابنَ خلدونِ زمانِه في الإصلاح. ومن أقواله في مقدِّمة كتابه "أقوم المسالك" ما يلي: «الإسلامُ لا يمنع أن يُقتبَس الصالحُ من الأمر، حيث كان وممّن كان»، وقوله «والأمّة الإسلامية كما يشهد المنصفون لها من عقليتها واستعدادِها وسابقِ مدنيَّتِها ما يمكِّنها من السير في هذا المجالِ إذا أَذكيت حريتَها الكامنة، فالحريةُ والطموح غريزتان في المسلمين تأصَّلتا فيهم بتعاليم دينِهم»، وقوله: «إنّ العدل والحرية هما ركنا الدولةِ، وهما اللذان كانا في المملكة الإسلامية فأَزهرتْ، ثمّ فُقِدا فذبُلت. ولم يكونا في الدول الأوروبيةِ فانتابها الضعفُ والفساد، ثمّ كانا فصلُح حالُها»، وقوله: «الحقُّ أنّ الأمم الإسلامية لا تصلُح إلّا بالنظام الشورِي الذي يُقيّد الحاكم.» ويخلُص خيرُ الدين التونسيُّ في مقدِّمته إلى أنَّ مِنْ أهمِّ العوائقِ في طريقِ تقدُّمِ المسلمين وجودَ طائفتين مُتعانِدتين: رجالُ دينٍ يعلمون الشريعة ولا يعلمون الدنيا، ورجالُ سياسةٍ يعرفون الدنيا ولا يعرفون الدين».اهـ[٢]

العلماء والدعاة ضد المستعمرين

وجد الأعداءُ المحتلّون للبلاد التونسيةِ إسبانيين كانوا أو فرنسيين مقاومةً

١ عائد عميرة وحفصة جودت، مقال: خير الدين باشا: أبرز رجال الإصلاح العثمانيين في تونس: https://www.noonpost.com/content/21649

٢ خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم محمد الحداد، دار الكتاب اللبناني، ط (١)، ١٤٢٩هـ/٢٠١٢م، انظر المقدمة ص ٥

عنيفةً من العلماء الذين ما انفكُّوا ينافحون عن اللغة العربيةِ والعلومِ الإسلامية، وكان لعلماء الزيتونةِ دورٌ كبيرٌ في الدفاع عن العلوم الإسلامية أثناءَ فترةِ الاحتلالِ الإسباني؛ حيث حافظوا على الهويّة الأصلية لتونسَ، وساعدوا على تجاوز تونسَ لهذه المحنةِ الكبرى، وأسهموا في ذلك بإسهامات مشكورةٍ مهمّةٍ.

منهم: المفكرُ المناضلُ الشيخُ عبدُ العزيز بنُ إبراهيمَ الثعالبيُّ (ت ١٣٦٣/١٩٤٤م) مؤلّفُ كتاب "تونس الشهيدة"،[١] وهو من خرّيجي جامعِ الزيتونة، وكان في تونسَ مناضلًا بارزًا ضدَّ الاحتلالِ الفرنسي أوّلًا، وضدَّ أعداءِ الدينِ الإسلامي ثانيًا، فهو كما يُوصف بأنّه "داعيةُ الإصلاحِ والتجديد والمقاومة" ممّا جعله عرضةً للنفي والتَّرحالِ في سبيل دعوتِه ومبادئِه"[٢]. وكان الثعالبيُّ من أهمِّ الشخصياتِ الوطنيةِ التونسية التي قادت حركةَ الإصلاحِ محلّيًا وعربيًا في النصف الأوّلِ من القرن العشرين، ومن أبرز المؤثّرين في تلك الحِقبةِ التاريخيةِ لما اكتسبه من فصاحة وبيانٍ لغويٍّ ورؤيةٍ ثاقبةٍ في عدّة مسائلَ دينيةٍ وثقافية وسياسية.[٣]

ومن العلماء المقاومين للمستعمرين الشيخُ محمدُ بنُ الطيبِ الزيتونيُّ (١٤٠٠ه/١٩٩٠م) من كبار العلماء العاملين والمجاهدين، وكانت أسرتُه ذاتَ مركزٍ مرموق في فاس، بالرغم من أنها تنتمي أصلًا إلى جامع الزيتونةِ بتونسَ، كما هو ظاهرٌ من اسمها، حيث كان أبوه من كبار علماءِ الزيتونة، وقد شارك محمدُ بنُ الطيبِ في ثورة الريفِ ضدَّ المستعمرين الأسبانِ والفرنسيين، وعمل تحتَ قيادةِ الشيخِ المجاهدِ محمدِ بنِ عبدِ الكريم الخطابي (ت١٣٨٢هـ/١٩٦٣م).[٤]

وفي التاريخ القريبِ لا تكاد ترى صفحةً في الإعلام إلّا وفيها احتجاجُ علماءِ الزيتونةِ على بعض المقترحاتِ الاجتماعيةِ السخيفةِ أو على بعض الفتاوى الشاذَّةِ، وليس ذلك إلّا حِفاظًا منهم على الثوابت الدينيةِ والقيم الإسلاميةِ الأصيلةِ؛ لأنّ أهلَ

١ كتاب تونس الشهيدة، لعبد العزيز الثعالبي، نشرته دار الغرب الإسلامي في بيروت في عام ١٤٠٨/١٩٨٨م.

٢ انظر ترجمة عبد العزيز الثعالبي في الرابط التالي: عبد _العزيز _الثعالبي https://www.marefa.org/

٣ أنيس العرقوبي، مقال: "عبد العزيز الثعالبي مجاهد تونسي عاش منسيًا ومات مظلومًا":
https://www.noonpost.com/content/35874

٤ محمد خير رمضان يوسف، تتمة الأعلام للزركلي، ط (٢) دار ابن حزم بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م: ١٧٧/٢

الزيتونةِ يرِثون تجربةً علميةً ثريةً ومناهجَ تعليميةً عريقةً.[١]

ولا يَسَعُنا هنا إلّا أن نذكر منهم: المصلحَ المربّي المفكّرَ شيخَ الجامعِ الأعظم الشيخَ محمدًا الطاهرَ بنَ عاشورِ الحسني الإدريسي (ت ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)[٢]، وكان رحمه الله رائدًا من روّاد الإصلاحِ ومناضلًا من أجل أمةٍ ووطنٍ، كما ظهر ذلك في حياته وفي كتبه. وكان مصلِحًا لكنّه كان مصلِحًا أصيلًا لا مُحْدَثًا، حيث قاوم من دعا العمالَ إلى الإفطار بدعوى زيادةِ الإنتاجِ ومَن طلبَ مِن الشيخ الإفتاءَ بجواز الإفطار، فقد فاجأه بقراءة آيةِ الصومِ، ثمّ قال: «صدق الله».[٣]

هكذا كان علماءُ الزيتونةِ لهم دورٌ ريياديٌّ وحضاريٌّ دائمًا، وما زالوا على هذا المنهج كذلك؛ لأنّهم لم يبتعدوا عن الإصلاح والتجديدِ في دراساتهم ومصنفاتِهم وأبحاثهم الى اليوم، وينبغي اليوم ردُّ الاعتبارِ لعلماء الزيتونةِ لإحياء الاجتهادِ المستنبَطِ من الكتاب والسنة بما يُحقّق المصالحَ الاجتماعيةَ متمسّكين بالهوية الإسلاميةِ الراسخة.

وختامًا: أسأل اللهَ المولى العلي القدير أن يُبقي علماءَ الزيتونةِ حصنًا منيعًا ضدَّ المتغيّراتِ الاجتماعيةِ السخيفةِ والهدَّامةِ للهويّة الإسلامية، ورُوَّادًا كِرامًا في الانبعاث الحضاريّ في تونسَ الحبيبةِ البهيةِ. اللهم آمين.

١ انظر مثلا الرابط التالي: https://www.youtube.com/watch?v=xAFyq1txeao

٢ بالقاسم الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور، حياته وآثاره، بيروت ١٤١٧هـ/١٩٩٦م

٣ انظر الرابط التالي في فتوى محمد الطاهر بن عاشور بعدم جواز الإفطار للصائمين غير المعذورين: https://www.youtube.com/watch?v=fQA7wfOI4uk

المصادر والمراجع

- ابن أبي الضياف، أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان في أخبار ملوك تونس وعهد الأمان: ٣/٨٦-٩٧. وقد طبع الرد باسم "رسالة علماء تونس"، بمراجعة فريد عمار، شركة دار المشاريع، ١٤١٩هـ/ ٢٠٠٧م
- ابن الأثير، علي بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير الجزري، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م
- أبو غدة، محمد زاهد، مقال: "فتح الجيش العثماني بقيادة سنان باشا الحصن الإسباني الأخير في حلق الوادي بتونس":
https://islamsyria.com/site/show_articles/7975
- بالقاسم الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور، حياته وآثاره، بيروت ١٤١٧هـ/١٩٩٦م
- بيرم الأول، محمد بن حسين، رسالة السياسة الشرعية، بتحقيق محمد الصالح العسلي، وتقديم عز الدين بن زغيبة، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، ١٤١٩هـ/٢٠٠٢م
- التميمي، أبو الفداء إسماعيل التميمي، برنامج المقدمين للإمامة والخطابة بالجامع الأعظم من لدن الشيح الإمام ابن عرفة فمن بعده، بتحقيق حمدي بن الحبيب البدراني، نشرته دار الكتب العلمية في بيروت، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م
- المنح الإلهية، بتحقيق أحمد الطويلي، المطبعة العصرية، تونس ٢٠١٣م
- حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، ط (٣)، دار الكتب العربية الشرقية، تونس، ١٣٧٣هـ/١٩٧٠م
- حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م
- خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم محمد الحداد، دار الكتاب اللبناني، ط (١)، ١٤٢٩هـ/٢٠١٢م
- الدرأّج، محمد الجزائري، مقال: "لماذا كانت الدولة العثمانية تتدخل لحماية المسلمين" المنشور في الرابط التالي:
https://m.facebook.com/story.php?story_fbid=469747261354231&id=100049568843943
- الرصّاع، محمد بن قاسم، الهداية الكافية الشافية في سيرة ابن عرفة ومسائله، دار الغرب

الإسلامي، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م

- الزِّرِكْلي، خير الدين بن محمود الدمشقي، الأعلام قاموس تراجم، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤١٩هـ/٢٠٠٢م
- الزمزمي، محمد الهادي، مقال:" الحرب على جامع الزّيتونة في الحقبة العلمانية، المنشور في الرابط التالي:

https://yatounes.blogspot.com/2009/04/blog-post_08.html

- السراج، أبو عبد الله محمد بن محمد الوزير السراج، الحلل السّندسيّة في الأخبار التّونسيّة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م
- السمنودي، إبراهيم بن عثمان العطار، سعادة الدارين في الردّ على الفرقتين الوهابية ومقلدة الظاهرية، وقد وسمها بالرسالة الرحمانية، دار الخلود للتراث، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
- السنوسي، أبو عبد الله محمد بن عثمان بن محمد، مسامرة الظريف بحسن التعريف، تحقيق محمد الشاذلي النيفر، ط (١) لبنان، ١٢٨٠ه/١٨٦٣م
- الستيتي، مصطفى ، ندوة "العلاقات التونسية التركية، ماض وحاضر" في قطر، في عام ٢٠١٣م، النشرة العربية لوكالة الأنباء التركية:
- تركيا/الأرشيف العثماني يُصلح ما أفسده التاريخ مع تونس

https://www.aa.com.tr/ar /253333

- طاشكبرى زاده، أحمد بن مصلح الدين مصطفى، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية: نشره الأستاذ الدكتور أحمد صبحي فرات، في منشورات جامعة إسطنبول، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م
- عائد عميرة وحفصة جودت، مقال: "خير الدين باشا: أبرز رجال الإصلاح العثمانيين في تونس" المنشور في الرابط التالي

https://www.noonpost.com/content/21649

- العرقوبي، أنيس، مقال: "أثر الحكم العثماني في التحولات الاجتماعية بتونس"، المنشور في الرابط التالي:

https://www.noonpost.com/content/36529

- مقال: "عبد العزيز الثعالبي مجاهد تونسي عاش منسيًّا ومات مظلومًا" المنشور في الرابط التالي:

https://www.noonpost.com/content/35874

- مقال: "بين الغزو والفتح، تونس من سطوة الإسبان إلى إيالة عثمانية" المنشور في الرابط التالي:

  https://www.noonpost.com/content/36428

- الغزي، نجم الدين محمد بن محمد، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، ط (١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

- فؤاد صالح السيد، معجم ألقاب السياسيين في التاريخ العربي والإسلامي، مكتبة حسن العصرية، بيروت، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م

- كاستريللو، ريكادو غونزاليس، مقال "دفاع عن حلق الوادي في تونس في ١٥٧٤م"، يعتمد على ذكريات جندي إسباني يسمى (آلونسو دو سالامنكا) شارك في خرب الأسطول العثماني، ثم أسر في الحرب ونقل إلى إسطنبول، كتبها باللغة الإسبانية ويحتفظ بها في قسم المخطوطات في المكتبة الملكية في مدريد، والعنوان الأصلي للمقال:

  Ricardo Gonzáles Castrillo, "La Perdida de la Goleta y Túnes 1574 y Otros Sucesos de Historia Otomana, Narrados por un Testigo Presencial: Alonso de Salamanca", Anaquel de Estudios Árebes, V. 3, Madrid 1992) Scripto en Costantinopla año 1576: PR Real Biblioteca de Madrid, folio 1, Manuscrito II/1330

- كحَّالة، عمر رضا، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، دار التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

- المحجوب، عمر بن القاسم، رسالة علماء تونس، التي رد بها على رسالة الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي، وانظر لزامًا:

  http://daikiri.over-blog.com/article-81887534.html

- محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، ط (١)، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

- محمد بن حسين بيرم الأول، رسالة في السياسة الشرعية، بتحقيق محمد الصالح العسلي، وتقديم عز الدين بن زغيبة، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م

- محمد خير رمضان يوسف، تتمة الأعلام للزركلي، ط (٢) دار ابن حزم بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م

- مخلوف، محمد بن محمد بن عمر بن قاسم بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تعليق عبد المجيد الخيالي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م

- المكناسي، أحمد بن محمد المعروف بابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، بتحقيق محمد الأحمدي أبو النور، ١٣٩١هـ/١٩٧١م
- لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد، طبع ضمن كتاب موسوعة أعلام المغرب للشيخ جمع وتحقيق محمد حجي، ط (١)، دار الغرب الإسلامي، ١٣٩٦ه/١٩٧٦م
- محمد بن حسين بيرم الأول، رسالة في السياسة الشرعية، بتحقيق محمد الصالح العسلي، وتقديم عز الدين بن زغيبة، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، ١٤١٩هـ/٢٠٠٢م
- مقديش، محمد بن سعيد أبو الثناء الصفاقسي التونسي، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ومناقب السادة الأطهار، تحقيق على الزواري ومحمد محفوظ، دار الغرب الاسلامي، بيروت، الطبعةالأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م،١/٦٢٥:
https://al-maktaba.org/book/33342/622#p1
- النيفر، محمد، عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب، دار الغرب الإسلامي، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م
- الهرماسي، عبد اللطيف الهرماسي الجزائري، المجتمع والإسلام والنخب الإصلاحية في تونس والجزائر، دراسة مقارنة من منظور علم الاجتماع التاريخي، نشره المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ١٤٣٩/٢٠١٨م
- عائد عميرة وحفصة جودت، مقال: "خير الدين باشا: أبرز رجال الإصلاح العثمانيين في تونس" المنشور في الرابط التالي:
https://www.noonpost.com/content/21649